الترجمة إلى اللغة العربية تَكَوْثُرٌ لَفْظِيّ أم تَكَوْثُرٌ عَقْلِيّ؟
سؤال المصطلحات والمفاهيم

أ. د. الزهرة إبراهيم

... اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها...
ابن خلدون

... إذَا سَلَّمْنا أنَّ الترجمة صَدَقَتْ وما كذَبَتْ، وقَوَّمَتْ ومَا حَرَّفَتْ، ووَزَنَتْ ومَا جَزَفَتْ، وأنَّها الْتَاثَتْ ولَا حَافَتْ، ولَا نَقَصَتْ ولا زَادَتْ، ولا قَدَّمَتْ ولَا أَخَّرَتْ، ولا أَخَلَّتْ بمعنى الخاصّ والعامّ، ولا بأَخَصّ الخاصّ ولا بأَعَمّ العامّ - وإن كان هذا لا يكون، وليس في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني- فكأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه...
أبو سعيد السيرافي

تطرح الترجمة من لغة إلى لغة عددا من الأسئلة المتعلقة بمدى قدرة اللغة المترجَم إليها على الاستجابة الدقيقة لما يُتَرْجَم، على مستوى معجمها وتراكيبها وطاقاتها التعبيرية، واحتوائها المعنى. فوراء كل متن لغوي نسق فكري وسياق ثقافي مرهون بشروط تاريخية وفلسفية تتبادل وإياه علاقات التأثير والتأثر.

لا مناص، في وقتنا الراهن، أكثر منه سابقا، من تكثيف مشاريع الترجمة إلى اللغة العربية، وتسريع وتيرتها، من لغات تُنتِج المقدرات الرمزية والمادية لعالم الألفية الثالثة، إنْ كان العالم العربي يَقْبَلُ، فعلا، أن يركب قطار الحداثة، ولو من باب الارتباط والاستئناس بالمنجَز الحاصل والاستفادة منه، لا من باب المساهمة الفعلية فيه بسبب الفاصل الفكري، والعلمي، والتكنولوجي الهائل بين العرب وغيرهم من الأمم التي تحرص على تعزيز موقعها الريادي في التقدم، سواء كزعامات غربية تقليدية، أو كاقتصادات آسيوية صاعدة. فهل تشكِّل الترجمة في مثل هكذا وضع قارب النجاة حتى نتشبث بسفينة لا نقودها، لكنها تقودنا، حتما، حتى لا نفقد الأمل كليا في معرفة ما يجري على متن هذه السفينة، ثم الوصول، خلف الفاعلين الحقيقيين، إلى شواطئ التقدم ومنار المعرفة الذي ما ينفك يتعالى من دون توقف ومن غير خفوت؟

تبدو مسألة الترجمة إلى اللغة العربية شائكة في مجال العلوم الإنسانية. وقد اكتشفنا بعد اشتغالنا بتحويل نصوص، من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، تنتمي إلى مجال النقد الأدبي، واللسانيات، والفلسفة، والإبستمولوجيا، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا.. مجموعة من الصعوبات التي دفعتنا إلى التساؤل عن مدى دقة الترجمة ووفائها بشرط الموضوعية كي لا تصير نوعا من القصور الذي يتحول إلى خيانة تنأى بنا عن صحة الفكرة، ووضوح قصديتها، أو دقة المفهوم وسلامة توظيفه، كما هو الحال عليه في النص الأصل، لأن «لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها، في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها، واستعارتها وتحقيقها، وتشديدها وتخفيفها، وسعتها وضيقها، ونظمها ونثرها وسجعها، ووزنها وميلها، وغير ذلك مما يطول ذكره»[١]

تشتغل، بشكل مطرد، في المجال العلمي "لغة محدَثَة"[٢] - حسب تعبير غاستون باشلارGaston Bachelard - تقوم على مبدأ ترجمة ألفاظ اللغة العادية ونقلها إلى اللغة العلمية، وتشكل المصطلحات Signes conventionnels أو Glossaires والمفاهيم Concepts جزءا مهمّا من هذه اللغة المُحْدَثَة. وحين يتعلق الأمر بالحاجة إلى ترجمتها، فإن المترجِم يصبح أشد احترازا حتى لا يقع في ما وقع فيه أبو بشر متى بن يونس من جهله خصوصيات اشتغال اللغة العربية، وهو يشرح بها كتب أرسطو، قائلا إنه يكفيه من لغة العرب الاسم والفعل والحرف ليَتَبَلَّغَ بها أغراض قد هذَّبَتْها له يونان، لكن السيرافي يُخَطِّئُه لأنه وجده في هذا «الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصف اللغة

العربية وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها، فهو أحوج إلى تعرف هذه اللغة منه إلى تعرّف المعاني اليونانية، لأن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية، بينما اللغات تكون فارسية وعربية وتركية»٣.

وتلافيا لبعض اللبس الذي يعتري ترجماتنا إلى اللغة العربية، عمد كثير من المترجمين العرب إلى إلحاق أعمالهم المترجمة بجرد للمصطلحات باللغة الأصل إنجليزية- فرنسية- ألمانية- إسبانية... وذكر معادلها باللغة العربية، وذلك خدمة للقارئ العربي، لكن حتى بمثل هكذا إجراءات لا يسلم الوضع، في حالات كثيرة، من احتمالات المعنى أو تنازعه بين قطب معرفي وآخر، وذلك في إطار معارف تتطور باستمرار، وتفرز، بالتالي، تدقيقات وتشذيرات لغوية لا بد منها لحفظ منجز الفكر، وتمييز عناصره المنثالة في تدفق لا ينضب.

تظل الاستعانة بالمعاجم وبالقواميس فعلا إجرائيا لإنجاز فعل الترجمة، لكن عدم توحيد المصطلح المشتغل في عدد من الحقول المعرفية يضع المترجِم - الذي يحترس كثيرا للوفاء بأمانته العلمية- في كثير من الحيرة، ويدخله في متوالية عمليات شاقة للتدقيق والتمحيص قد لا تسفر، أحيانا، عن نتائج مضمونة مائة بالمائة لأن الحقول المعرفية المتخصصة تعاني من فوضى في الترجمة لا حد لها.

والملاحظ، من خلال تجربتنا في الترجمة من وإلى اللغة العربية، أن كم الألفاظ، الذي يقدمه المعجم العربي، في عدد من الحالات، هائل ووفير لكي يعادل لفظا واحدا في اللغة الفرنسية. يتأكد هذا الأمر في كَمٍّ المصطلحات النقدية المتداولة بين الباحثين العرب، من قبيل: التناص Intertextualité الذي أفرز مصطلحات مجازية تصب في نفس دلالته مثل: النص الغائبTexte absent كما عند رولان بارث، والطروسيةPalimpseste عند جيرار جنيت، وفسيفساء النصوص Mosaïque de textes حسب تعبير جوليا كرستيفا، والحوارية Dialogisme التي ابتكرها ميخائيل باختين، و"الأثر"La trace كما ورد عند جاك دريدا. فأيها يكون الأنسب استعمالا لتوحيد المادة المصطلحية بين الدارسين باللغة العربية؟ نطرح هذا السؤال لأن الأمر يتجاوز، أحيانا، مسؤولية المترجم، من جهة، بسبب وفرة المادة المعجمية في اللغتين العربية والفرنسية، ومن جهة ثانية، نتيجة اجتهاد الدارسين وسعيهم وراء التميز بتنويع المصطلح كما حدث في النقد الشعر العربي القديم حيث «طرح إشكالات جمة، من أعظمها التباس مفهومه وانفتاح مجاله الدلالي، وتنوع دلالاته وغاياته وفق الاستعمال، وتداخله مع غيره من المصطلحات»٤، ومن جهة ثالثة، تعثر الجهود اللغوية لتوحيد المصطلح في الدراسات النقدية والبحوث العلمية الخاصة بكل حقل على حدة. والحاصل أن هذه الوفرة غير المنظمة تشوش على فهوم الباحثين، وتهجن اللغة "العلمية" التي يُفترَض أن يكتب بها طلبة الجامعات، والمعاهد، ومراكز تكوين الأطر، وفي سلك الماستر، وسلك الدكتوراه، بحوثهم بكل وضوح وتمكن من معجمها واشتغال بنياتها، فنجدهم يستعملون كَمّاً من المصطلحات دون ضبط، وأحيانا حتى دون معرفة صحيحة بالإطار المرجعي الذي أنتج هذا المفهوم أو ذاك مما ينعكس سلبا على مستوى البحث العلمي.

من هنا أثرنا سؤالا شرعيا حول مسألة الترجمة إلى العربية، هل هي تكوثر عقلي أم تكوثر لفظي؟ فإذا تعلق الأمر بالأول فمعناه أن اللغة العربية مؤهلة للاحتواء المعرفي وما يتيح من تبادلات علمية، أما إذا اقتصر الأمر على الثاني، فالوضع يقتضي تدخلا منهجيا حتى نتصدى في منجزنا الترجمي لاحتمالات تعويم المعنى صونا لمصداقية الترجمة ونجاعتها.

أفرزت ترجمتنا "معجم بورديو"٥ Dictionnaire Bourdieu في السوسيولوجيا، و"معجم يونغ"٦ Dictionnaire Jung في علم النفس التحليلي، عددا من الملاحظات حول مشاكل التعاطي مع المعاجم العربية لتحويل معطى فكري من لغة أجنبية إلى اللغة العربية. وفي الواقع، تعود إرهاصات هذه الملاحظات إلى منتصف تسعينيات القرن الماضي حين دخلنا في علاقة جادة مع ترجمة كم هائل من النصوص الخاصة بالنقد المسرحي والدراسات الأنثروبولوجية.

أولا، سؤال الترجمة من وإلى اللغة العربية : أية إشكالات؟

لم يكن تأسيس نظرية للترجمة داخل الفكر الغربي مسألة بسيطة أو عابرة، ذلك أن وعي هذا الفكر بقيمة ما تحقق له بفضل الترجمة - من امتلاك معارف كانت مملوءة في أوعية لغات أخرى، وفي مقدمتها اللغة العربية، حتى يصبح قائد الحضارة الإنسانية منذ عصور النهضة الأوربية- هو ما حدا به ليكثف البحث حول قواعدها، وإجراءاتها، ومقاصدها، ومزالقها. وبالرغم من تنازع مواقف المفكرين والمترجمين حول أهمية الجانب النظري في تحصين المنجز الترجمي من زلل الابتعاد عن الضوابط العلمية المنظمة لفعل الانتقال بالفكر من

لغة إلى أخرى، فإن فعل الترجمة، مهما استبد به التنابذ والتنافر بين التنظير والممارسة٧ يظل نشيطا بفعل الحاجة الأكيدة إلى التبادلات المعرفية بين الحقول العلمية من جهة، وبين اللغات التي هي لسان أمم وشعوب تظل محكومة، قسرا، بقواسم ومطالب مشتركة يؤكدها التاريخ، وروح العصر، ورهانات المستقبل.

ولئن كانت الترجمة إلى العربية، من لغات مستثمرة كثيرا في تحيينActualisation المعارف العربية، كاللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية واللغة الإسبانية بحكم العلاقة الإمبريالية المُقْسِرَة التي ألحقت شعوب المنطقة العربية، لغويا، بالدول المستعمِرة لها - لأنها تملك قدرة إنتاج المعرفة علميا وتكنولوجيا بتحققاتها المادية وبمفاتيحها اللغوية المُحْدَثَة- فإن ثمة أخطاء تبدو مسيئة إلى هذا الجهد نتيجة ما توصلت إليه عدد من الدراسات النقدية٨ حول حركة الترجمة.

وتطرح ترجمة المصطلحات من وإلى اللغة العربية عددا من الإشكالات المرتبطة بالآتي:

١. اتساع الهوة الزمنية والثقافية بين الأنساق المنتجة للمصطلح والنسق المستهلك له،
٢. تأخر المعاجم العربية في احتواء المصطلحات المولودة أو المستجدة نتيجة بطء أو تشتت جهود المجامع اللغوية العربية،
٣. عدم انضباط المترجمين بالحد الأدنى في توحيد أو تَقارُب المصطلح،
٤. إقبال عدد من المترجمين على ابتداع مصطلحات متعددة لنفس المصطلح الأصلي، وذلك اعتمادا على مرونة اللفظ العربي معجميا، أو اللجوء إلى ترجمة مرادفاته في لغته الأصل من غير احتراز بإشراطات سياقه،
٥. صعوبة تدقيق توظيف المصطلح لا سيما في حقل العلوم الإنسانية،
٦. مراجعة الترجمات إلى اللغة العربية لا تشمل كل الأعمال المترجمة،
٧. قلة الدراسات النقدية لِما يترجَم يفسح المجال أمام شيوع الخطأ والاستخفاف بفعل الترجمة من لدن ممارسيها،
٨. انقسام الجهود الترجمية إلى مشهد مغاربي فرنكفوني وآخر مشرقي أنجلوفوني يتنابذان أكثر مما يتقاربان لتوحيد المصطلح، وإقالة الباحثين والدارسين عثرات تعدد في التسميات لا طائل من ورائه،
٩. غياب مرصد عربي يتتبع الفتوحات النظرية في مختلف حقول المعرفة، وقياس سلطتها عالميا في مجال التداولات العلمية، وبالتالي، ترجمة مفاهيمها ومصطلحاتها لتمكين الباحث باللغة العربية من تملكها، وتوظيفها، واستثمارها في بناء معرفة عالمية لا يحتكرها طرف دون آخر،
١٠. جدوى اقتناع الأنظمة العربية بأن منفعة ما يمكن إنفاقه على الترجمة أكثر بكثير مما تهدره في شراء الأسلحة، فالسلاح الأنجع للبقاء في المستقبل هو العلم.

أصبحت ضرورة تقريب خرائط الترجمة الخاصة بالمصطلحات مُلِحَّةً أكثر من السابق كلما تقدمنا في المنجز الترجمي إلى اللغة العربية كمّاً، ونوعا، وكيفا، ولا تبدو المسألة مستحيلة، على الإطلاق، لوجود مشاريع سابقة مهمة، منها ما بدأ الشيخ عبد الله العلايلي إنجازه ما بين ١٩٣٨ و١٩٦٣ حيث سار على خطى أعلام المدرسة اللبنانية أمثال أحمد فارس الشدياق وإبراهيم اليازجي وظاهر خير الله الشويري «الذين اشتهروا بالغيرة على لغتهم والعمل على تطوير معجماتها، ونادوا في وقت مبكر بوجوب القياس واطراده، ولم يكفُّوا عن الدعوة إلى الوضع والزيادة في اللغة ابتغاء التجديد»٩ مما ينم عن وعي إيجابي لتقليص الهوة بين اللغة العربية وغيرها من لغات العالم المنتجة لتقدم الفكر الذي لا يتجلى إلا من خلال أوعية اللغة ومسمياتها. فما هو السبيل إلى تدارك الفارق الحضاري والزمني الموشوم في جسد اللغة العربية، هذا الفارق الذي صار منذورا أكثر إلى الاتساع في زمن لا يعتد باللغات الخاملة علميا، وتكنولوجيا، وفلسفيا؟

يحتدم إشكال الترجمة في زمن العولمة الذي ينزع نحو إرساء نموذج لغوي مهيمن تتراجع في ظله باقي لغات العالم. فكيف يصمد النموذج اللغوي العربي في وجه هذا التيار وهو يراوح منجزه من وإلى لغات حية؟ ثم كيف تستقيم الممارسة الترجمية العربية لتتأى عن تداولات لغوية كثيرة تشوش المعنى، وتفتحه على احتمالات أو تأويلات هو في غنى عنها كي لا يعيق المقاصد النفعية لهذه الممارسة؟ وكيف نؤمِّن هذه المقاصد بتوفير مختلف الروافد المعرفية التي «تتغذى عليها الترجمة، تستوي في ذلك اللسانيات، والأسلوبية، والمعجمية، والعِراقة، والإناسة، والحيَاوة... إلخ»١٠ وغيرها من العلوم الإنسانية والبحتة التي لا مناص للمترجِم من حيازتها حتى يستجيب لمطالب

التبادلات الفكرية عبر وسيط اللغة؟

تتعلق هذه الأسئلة بمجموع المتون التي يحصل تحويلها لغويا، سواء كانت فكرية أو إبداعية، ومن المعلوم أن عنصر الدقة يغيب أكثر في هذه الأخيرة نتيجة اشتغال اللغة المجازية حيث يصعب الوفاء بتشكيل صادق لصورها المنقولة من نسق ثقافي إلى آخر يختص كل منهما بمتخيله، وخلفياته، وتداولاته، فتلج التبادلات اللغوية دوائر من التحوير التي تصل، أحيانا، إلى تشويه المعنى الأصلي أو طمسه.

لكننا حين نخص بسؤال الترجمة مسألة المصطلح الوافد إلى اللغة العربية من اللغة المحدِثة له، في واحد من حقول العلوم الإنسانية، مثل اللسانيات، أو علم الاجتماع، أو علم النفس، أو علم النفس التحليلي، أو علوم التربية، أو الأنثروبولوجيا... فإن الأمر يقتضي حرصا أكثر على توحيد مفاتيح الاشتغال بين الدارسين تجنبا لتمييع المعنى أو استعماله كيفما اتفق وفي غير سياقه، أحيانا، لأن توظيف أي مصطلح رهين بالإطار المرجعي الذي أنتجه، كما يقتضي شروطا خاصة لاستثماره في حدود معلومة لهذا الإطار المرجعي.

نيمم وجهنا، استجابة لمطالب الترجمة، شطر المعاجم العربية العامة، والقواميس المختصة فيواجهنا عدد من الصعوبات في انتقاء اللفظ العربي الأنسب للمصطلح الأجنبي كما ورد في لغته الأصل – أو في اللغات الأجنبية التي تحوَّل إليها من قبيل ترجمة الفكر الألماني إلى اللغة الفرنسية– تتمثل في كثرة الألفاظ العربية الدالة على نفس المعنى، علما بأن طبيعة الاشتغال الترجمي لا تقف عند حدود فك مستغلقات البنية اللسانية، بل تستحضر معطيات الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه المصطلح، وقد يمتد التدقيق في معنى المصطلح إلى حد استدعاء منجزات صاحبه، وتتبع تاريخ حياةHistorique du concept هذا المصطلح في منجزه العلمي، ثم مقارنة ذلك بما يرِد عند أمثاله من المتخصصين في نفس العلم، سابقين أو لاحقين، باعتبار ما يوجد بينهم من تواؤمات أو اختلافات نتيجة تطور الأبحاث الميدانية، أو المخبرية، أو الإكلنيكية وتفريعها، كما تكشف ذلك، على سبيل العد لا الحصر، مدونة كارل غوستاف يونغCarl Gustave JUNG التي بلور أو عارض، من خلالها، منظورات سيغموند فرويد Sigmond FREUD، مثلا، في ما يخص مصطلح "علم النفس التحليلي" Psychologie analytique ، ومصطلح "غائية" Finalité، و"لاوعي" Inconscient وغيرها كثير...

ثانيا، الترجمة إلى العربية : تكوثر لفظي أم تكوثر عقلي؟

يعزو أمبرتو إيكو Amberto Eco ظهور الترجمة واستمرارها إلى أسطورة بابل المجهضة١١، وعجز البشر، منذ بلبل الرب لغتهم، عن تحقيق اللغة الفردوسية المزعومة الوحيدة الموحَّدة، فحين تعددت لغات البشر، صار أهل كل لغة أشد حرصا على صون تمايزها عما سواها، وإغناء سجلاتها، فأصبحت جزءا جوهريا من هويتهم الحضارية. وتعتبر وفرة المعجم – حسب ليبنتز Leibniz– واحدة من بين الخصيصات المهمة التي تمنح لغة ما غِناها وتوسع، بالتالي، حظوظها الممكنة للتفاعل والتبادل مع غيرها من اللغات، ذلك أن «الثراء ذو أهمية أساسية في اللغة، وهو يكمن في وفرة الكلمات الوافية بالمراد والمناسبة لكل المواقف (...) والمعيار الصحيح للوفرة أو النقص في لغة معينة يوجد في ترجمة الكتب الجيدة من اللغات الأخرى إلى تلك اللغة١٢.

وإذْ يُحْسَبُ للغة العربية وفرة معجمها الذي يؤهلها، على الدوام، لاستيعاب غيرها من اللغات عبر فعل الترجمة، فإلى أي حد تكون هذه الوفرة نافعة ووظيفية تطور مدارك الإنسان العربي من حيث التدقيق والتخصص في مجالات العلوم الإنسانية والبحتة؟

المدخل الأول: حول التكوثر من الدلالة المعجمية إلى المفهوم الاصطلاحي

١-الدلالة المعجمية:

يتأكد ورود هذا اللفظ في اللسان العربي منذ القديم في صيغة الاسم "تَكَوْثُرٌ" على وزن تَفَعْلُلٌ، وفي صيغة الفعل "تَكَوْثَرَ" على وزن تَفَعْلَلَ. يورد ابن منظور اللفظ في باب "كثر"١٣ فالكَوْثَرُ: الكثير من كل شيء. والكَوْثَرُ الكثير الملتفُّ من الغبار إذا سطع وكَثُرَ. قال حسان بن نُشْبَةَ:

أَبَوْا أَنْ يُبيحُوا جَارَهُمْ لِعَدُوِّهِمْ وَقَدْ ثَارَ نَقْعُ الْمَوْتِ حتى تَكَوْثَرَا

وقد تَكَوْثَرَ. ورجلٌ كَوْثَرٌ: كثير العطاء والخير. والكَوْثَرُ: السيد الكثير الخير. قال الكميت:

وَأَنْتَ كَثيرٌ، يا ابْنَ مَرْوانَ، طَيِّبٌ، وكانَ أَبُوكَ ابْنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرَا.

والْكَوْثَرُ: النهْرُ، عن كراع. والكوْثر: نهر في الجنة يتشعب منه جميع أنهارها وهو للنبي، ص، خاصة. وفي حديث مجاهد: أُعْطِيتُ الْكَوْثَرَ، وهو نهر في الجنة، وهو فَوْعَلٌ من الكثرة والواو زائدة ومعناه الخير الكثير. وجاء في التفسير: أن الكوثر القرآن والنبوة. وفي التنزيل العزيز: إنا أعطيناك الكوثر، قيل: الكوثر ههنا الخير الكثير الذي يعطيه الله إلى أمته يوم القيامة، وكله راجع إلى معنى الكثرة. وفي الحديث عن النبي، ص، أن الكوثر نهر في الجنة أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، في حافتيْه قِباب الدُّرِّ المُجَوَّف، جاء في التفسير أيضا: أن الكوثر: الإسلام والنبوَّة، وجميع ما جاء في تفسير الكوثر أُعطِيَهُ النبي، ص، أُعطي النبوَّة وإظهار الدين الذي بُعث به على كل دين والنصر على أعدائه والشفاعة لأمته، وما لا يحصى من الخير، وقد أُعطي من الجنة على قدر فضله على أهل الجنة ص. وقال أبو عبيدة: قال عبد الكريم بنو أمية: قَدِمَ فُلانٌ بِكَوْثَر كَثير، وهو فَوْعَلٌ من الكَثْرَة. أبو تُراب: الْكَيْثَرُ بمعنى الكثير، وأنشد:

هَلِ الْعِزُّ إِلاَّ اللُّهَى والثَّرَا ءُ والْعَدَدُ الْكَيْثَرُ الأَعْظَمُ؟

لقد تتبعنا ما جاء من أفعال في باب "كثر" في لسان العرب، فلم نجد فيه ذِكْر فعل: "كَوْثَرَ" الرباعي المجرد على وزن فَعْلَلَ. لذلك اعتبرت الواو زائدة، والأصل هو الجذر الثلاثي: ك- ث- ر.

٢- المفهوم الاصطلاحي:

يتناول الدكتور طه عبد الرحمن في مشروعه الفكري وجها آخر من وجوه اللغة في علاقتها بالعقل وبالمنطق١٤. وحيث يقوم الفعل الترجمي على مبدأ التحويل اللغوي داخل بورصة المعاملات العلمية، فقد ارتأينا استثمار مفهوم التكوثر للوقوف عند كل ما من شأنه أن يربك إجراء هذا التحويل. ويحدد الباحث خصائص الكلام الإنساني الثلاثة في "الخطابية" و"الحجاجية" و"المجازية" وتكون أسبابا فاعلة في التكوثر الخاص بمجال الخطاب الطبيعي١٥. وبعد تحليله هذه الخصائص، يخلص إلى كون "الكلام" و"الخطاب" و"الحجاج" أسماء مختلفة لمسمى واحد هو "الحقيقة النطقية الإنسانية"١٦.

ويعزو الدارس مسألة التكوثر النطقي إلى كون كل واحد من هذه العناصر ورث عن العلاقة التي يتحدد بها نوعا من "التكوثر النطقي"، فورث "الكلام" عن العلاقة التخاطبية تكاثرا في ذوات المتكلم، فهو الناقِل والمبلِّغ، وهو المتأدِّب والمُتَخَلِّق. كما ورث "الخطاب" عن العلاقة الاستدلالية تكاثرا في ذوات المخاطب (بكسر الطاء)، فهو المستبدِل التجريبيّ والمستبدِل التوجيهيّ والمستبدِل التقويميّ، وهو المستدِل بطريقة الأَوْلَى، والمستدِلُّ بطريقة المُساوي، والمستدِلُّ بطريقة الأَدْنَى. وأخيرا ورث "الحِجاج" عن العلاقة المجازية تكاثرا في ذوات المستعِير، فهو المُدَّعي الجليّ والمدَّعي الخفيّ، والمعترِض الجليّ والمعترِض الخفيّ، سواء تعلق الأمر بالمعنى الحقيقي أو المعنى القيمي١٧.

ولفظة " تَكَوْثُر"، كما يشير إلى ذلك طه عبد الرحمن، قليلة شيوع الاستعمال مقارنة بنظائرها المشتقة من نفس الجذر: [ك، ث، ر] مثل "التكاثر" و"التكثر" و"الإكثار" و"الاستكثار" و"الكَثْرُ". وقد وجدنا ألفاظا غيرها من نفس الجذر، وهي: الكَثْرَةُ والكُثْرُ والكَثَارَة والكُثَار والكثَار والمُكاثَرَة، وقد تشعب منها عدد من المشتقات التي تستجيب لمعاني الكلام العربي من قبيل: الكاثِر والمِكْثِير والكَثِير والمُكْثِر والأَكْثَر والمَكْثُور.

ويرى الدارس أن التكوثر، أولا، فعل عقلي، والمقصود بذلك أن العقل لا يقيم على حال، وإنما يتجدد على الدوام، ويتقلب بغير انقطاع لأن العقل هو في الأصل فاعلية وليس جوهرا مستقلا قائما بنفس الإنسان، كما ساد في الفلسفة اليونانية. والعقل ليس فاعلية فحسب، بل هو أسمى الفاعليات الإنسانية وأقواها١٨، وثانيا، فعل قصدي فلا يتكوثر إلا الفعل القاصد. والقصد توجه، وللتوجه خاصيتان: اللطافة حتى يسهل نفاذه ويتسع مجاله فيتقوى، ثم كونه علاقة مع المثيل كما مع النقيض تثمر الرسوخ وبُعْد الأفق١٩، وثالثا، فعل نفعي، فالعقل إذا قَصَدَ فإنه يطلب ما ينتفع به وإلا انحط وتعطل. ومقاصد العقل هي عين مقاصده العاجلة- المباشرة، والآجلة- غير المباشرة. وتكمن فاعلية الانتفاع العقلي بتعدية المنفعة الفردية إلى الغير حتى يَتكثرَّ الانتفاع ٢٠.

ويجزم طه عبد الرحمن في رصد وتحليل العلاقة الفلسفية بين اللغة والعقل أن «إدراك الإنسان مدلول التكاثر بصدد "المعقولات"

اكتمل عندما استقام له إدراك مفهوم "اللاتناهي" من خلال توالي الأعداد الطبيعية. ولما كان المظهران الأساسيان اللذان يتجلى بهما العقل للإنسان هما "اللغة" و"المعرفة"، فقد دخل الإنسان في الارتياض على إدراك هذه الكثرة من خلالهما، إذ لاحظ أن بنيات اللغة وتراكيبها تتكاثر بطريق غير محدود ولو أن عدد ألفاظها محدود فكل تركيب يدعو إلى مثله ثم تتداعى التراكيب، وهذا التداعي ليست له نهاية يقف عندها، أيضا لاحظ أن المضامين المعرفية التي تحملها التراكيب والبنيات اللغوية تتكاثر بتكاثر هذه التراكيب والبنيات، فما من مضمون إلا ويجوز أن يأتي من فوقه مضمون غيره، وأن يأتي من فوق هذا المضمون الثاني مضمون ثالث وهكذا من غير انقطاع»٢١. إلا أن خصيصة التكاثر، من هذا المنظور، ينبغي قياس جدواها بمدى نفعيتها وإلا ستبقى كَمّاً لفظيا، ليس إلا.

المدخل الثاني: التكوثر العقلي والتراكم المعرفي: أية حدود؟

يُذَكِّرُ طه عبد الرحمن بالركنين الأساسين في تطور المعرفة الإنسانية وهما: "الصيانة" القائمة على حفظ المنجز السابق، ثم "الزيادة" في حيازة حقائق جديدة. إلا أنه في تحديده مفهوم التكوثر العقلي ينوِّه إلى المبدأين الذي يقوم عليهما، وهما "مبدأ المراجعة" ومقتضاه أن الأصل في فعل التكوثر أن يؤثر الشيء إيجابا أو سلبا، زيادة أو نقصانا، ولا يمكن ادعاء بقاء الشيء على حاله إلا بدليل. فما يتكوثر به الشيء من شأنه أن يُدخل على عناصره تعديلات وتقويمات مختلفة، جمعا أو تفريقا، قلبا أو إبدالا، إضافة أو حذفا، وأن يجدد ترتيب مجموع هذه العناصر بما يُوَلِّد فيها أسباب المزيد من التكوثر٢٢.

أما "مبدأ التشعيب" فمقتضاه أن الأصل في التكوثر هو أن تتخذ فيه الزيادة صورة شعب متعددة يفيض بعضها من بعض، لا صورة الشعبة الواحدة، ولا يُصار إلى ادعاء سلوكها لشعبة واحدة إلا بدليل. وفي علاقة مع هذا، يميز الدارس بين حقيقة التكاثر الذي يتحقق في التكوثر العقلي القائم على مبدأ التجدد المنبني على التوالد، وبين التكاثر الحاصل في التوليد النحوي الذي يقوم على مبدأ التكرر المنبني على الدوران٢٣.

المدخل الثالث: نماذج التكوثر اللفظي:

نلحظ، كلما اشتغلنا على ترجمة متون فرنسية إلى اللغة العربية في مشاريعنا الأكاديمية، أن غنى اللغتين، معا، يطرح سؤالا دقيقا حول اتساع أو تقلص دائرة المعنى وما يرتبط بذلك من تكثير احتمالات هذا المعنى، وهذا في غير صالح الترجمة في المستوى الأول للغة، أي في معناها الحقيقي. أحرى أن يتعلق الأمر بالمستوى الثاني أو المجازي، فإن المهمة تصير صعبة لأن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: كيف ننقل الصورة المتجذرة في كون ثقافي معين إلى كون ثقافي آخر، إذ لا مناص من أن يتنابذ جزء من المتخيل والتمثلات الخاص بكل ثقافة عما هو موجود في ثقافة أخرى، بالرغم من وجود متعاليات ثقافية عابرة للأنساق والأزمنة.

ينهض فعل الترجمة بمطالب لسانية وأخرى عقلية ليحوِّل النص من لغة إلى أخرى. ولئن دققنا في العلاقة التخاطبية، بصفتها سببا أساسا في تكوثر الخطاب -على حد تعبير طه عبد الرحمن- لأن الكلام ينبني على قصدين اثنين أولهما، توجه المتكلم إلى الغير بإرادة منه، أي أن يكون المتكلم راغبا في الكلام، وثانيهما، أن يُفْهِمَ المتكلمُ هذا الغيرَ المقصودَ بالكلام. يتحقق هذا الشرط في الوضعيات التخاطبية الواقعية التي تمنح المتكلم المستفيد من معطيات وضعية تداولية حقيقية، إمكانات استدراك ما يعن غامضا أو غير مقنع في ذهن المخاطَب ليتدخل حتى تصير رسالته واضحة ومبلِّغة ومقنعة، إلا أن الأمر يصبح صعبا بالنسبة إلى مترجِم ينجز عملا ترجميا لمتلق افتراضي، غالبا ما يُقْبِل على استثمار المعرفة المترجمة دون تمحيص بسبب الإعاقة اللغوية التي تحول بينه وبين النظر النقدي القائم على المقارنة العلمية بين النص الأصل والنص المترجَم. كما أن فعل الترجمة هذا حين يشمل حقولا متخصصة يقوم بناء معرفتها وفهمها وتحليلها على مصطلحات ومفاهيم محدَّدة، فإن العلاقة التخاطبية تتطلب تعاقدات لغوية واضحة تلزم كليهما.

وحيث إن اللغة تعتبر بيانا لما يجول في عقل الإنسان، فإن علماء المسلمين، كما ينطلق من ذلك طه عبد الرحمن في بداية مؤلفه، قد استدلوا بكلمة "بيان" الواردة في ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ على معنى "المنطق" و"اللسان" معا، وهذا ما يؤكد وعيهم بالعلاقة البنيوية بين اللغة والفكر.

حين يتعلق الأمر بترجمة مصطلحات خاصة بحقل معرفي بعينه إلى اللغة العربية، فإن ما يحصل هو توزُّعُ المترجِم بين معاجم متنوعة لتقليص هامش احتمالات المعنى بما لا يخدم دقة المصطلح. وقد بذل العرب منذ القديم جهودا في هذا الباب لحرصهم في تعاملهم مع الدخيل والأعجمي، وسلكوا طرقا شتى، كي تستوعب لغتُهم ما يستجد من مصطلحات، من قبيل «الوضع، والقياس، والمجاز، والتوليد، والنحت... لأن الاشتغال المصطلحي يتحدد باعتبار الأسس التي يقوم عليها والأهداف المسطرة للبحث في لغة معينة»٢٤ من هنا تبدو المهمة مزدوجة الصعوبة لأن الحديث عن الترجمة إلى اللغة العربية حقل معرفي خاص يستوقفنا بدءا لنفحص بنية هذه اللغة ومُقَدراتها المعجمية، وإمكاناتها التركيبية وقدرتها على تجاوز عجزها في أي من هذه المستويات، ذلك «أن الجهاز المفاهيمي في كل حقل علمي أو معرفي أو في نظرية من النظريات، يترجمه نسق لغوي تتعالق وحداته لتكشف عن البنية الداخلية للعلم أو للنظرية. لهذا تقوم المصطلحية بإخضاع اشتغالها لمعايير ونسق اللغة الوعاء»٢٥.

بموازاة مع وعي العرب بقيمة اشتمال لغتهم مصطلحات ومفاهيم ومعارف وتفاسير جديدة مما ساد عند غيرهم باعتباره غنى وسعة فكرية، فقد انتبهوا كذلك إلى مخاطر هذه الوفرة وتم النظر، أحيانا، إلى كون «كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل»٢٦ والشيء نفسه يحصل حين تتعدد مسميات مصطلح واحد. فحين تضاف إلى وفرة التأليف وفرة المصطلح في غياب دراسات نقدية تغربل ما يُنجَز، يحصل نوع من الاضطراب والتيه للمتلقي وللباحث سواء بسواء، فإن «مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها»٢٧.

نماذج من إشكالات ترجمة المصطلح في "معجم بورديو" السوسيولوجي

استطاع علم اجتماع بورديو أن يملأ المشهد الغربي في أوربا والولايات المتحدة وكندا، منذ ستينيات القرن الماضي حتى الآن، فلا زالت المفاتيح السوسيولوجية، التي صاغها لفهم، وتفسير، وتحليل البنيات الاجتماعية، تثبت نجاعتها في مقاربة أنساق المجتمع المحكومة بعلاقات تضرب جذورها في حقول ذات الصلة كالتاريخ، والفلسفة، وعلم الأديان، وعلم النفس، والاقتصاد، والأنثروبولوجيا، واللسانيات، والسيميولوجيا إلخ... ولا يمكن إنكار ما استفاده علم الاجتماع العربي من سسيولوجيا بورديو في رصد وتفسير عدد من الظواهر والإشكالات المتفاقمة في المجتمعات العربية بسبب طبيعة السلط المتحكمة فيها.

تطلبت منا ترجمة عدد من مفاتيح سوسيولوجيا بورديو جهدا خاصا للتدقيق في انتقاء اللفظة العربية المناسبة لا سيما في ظل غياب عمل ترجمي شامل سابق لمؤلفات عالم الاجتماع الفرنسي التي توالد عبرها جهازه المفاهيمي في تناول القضايا والظواهر الاجتماعية التي أثارت انتباهه، ليس في المجتمع الفرنسي وغيره من المجتمعات الغربية، وحسب، بل ما راكَمَ، أيضا، من معرفة عميقة بالمجتمع الجزائري الذي تتقاطع فيه ظلال ثقافات متعددة، وخضع لأنساق سلطوية مختلفة. فعلى سبيل المثال، يقدم السجل اللغوي العربي كمعادل للكلمات التالية٢٨، ما يلي:

- Disposition

١- اسم مؤنث يعني: ترتيب- تنظيم- تنسيق.

٢- صيغة جمع، تعني: استعدادات- احتياطات- ترتيبات- أهبة- تدابير- إجراءات- سجايا.

- Structuralisme: بُنْيانية- بنيوية - تركيبية.

- Transposabilité، التي هي من اشتقاق بورديو، يمدنا المعجم العربي بالمعادلات الموالية: تغيرية- القابلية للتغيّر أو التغيير أو الإبدال أو القلب أو التنقيل.

- Distinction: تمييز- تميز- امتياز- علامة- تقدير

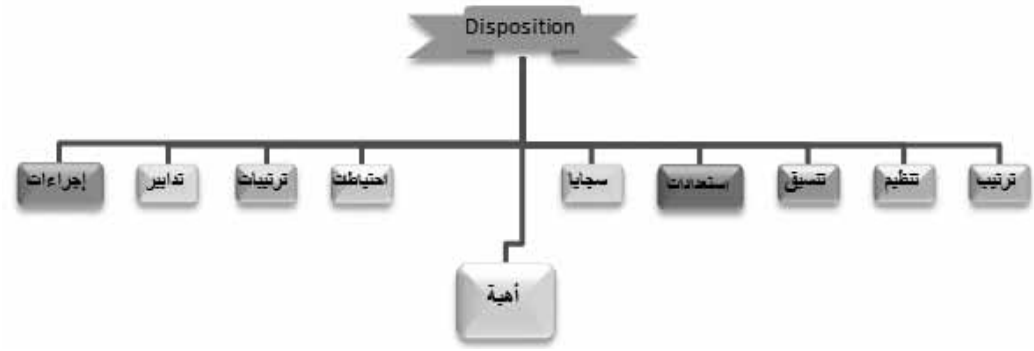

- Justification: تبرير- تبرئة- إثبات- تزكية- تسويغ

فأي من حزمة هذه الألفاظ يمكننا اختياره، بل ترجيحه بصفته معادلا لمفهوم Disposition؟ فدلالة "ترتيب" تختلف نسبيا، وبدرجات متفاوتة، عن دلالة "تنظيم" ثم عن دلالة "تنسيق"، والأمر نفسه موجود بين "احتياطات" و"تدابير" و"استعدادات" و"إجراءات" و"أهبة" و"سجايا".

نماذج من إشكالات ترجمة المصطلح من "معجم يونغ" في التحليل النفسي

يكشف المصطلح الخاص بعلم النفس وبعلم النفس التحليلي عددا من الاستعمالات المصطلحية التي تكثر وتتعدد في اللغة العربية بصفتها لغة مستقبِلة، وبين اللغات اللاتينية التي ولد فيها المصطلح. فعلى سبيل المثال يرد Le Conscient /L'Inconscient ، The Concious/The Unconcious في أحد معاجم علم النفس٢٩ بمصطلح: "الشعور" و"اللاشعور"، بينما أُقْصِي نظيره "الوعي" و"اللاوعي" الذي يستعمله دارسون آخرون في حقل التربية وعلم النفس. وهنا يحق لنا أن نتساءل عن أي المصطلحين أدق استعمالا في حقل علم النفس؟ فحين يفسر د. فاخر عاقل مصطلح Conscient يقول: "ممتلك للوعي أي للإحساس والشعور". فأحيانا يستعمل "وعي" كلفظ لتفسير معنى، وأحيان أخرى يحقنه بالدلالة التي يختص بها في الحقل النفسي. في حين يتطلب الأمر تخليص المصطلح من التعويم والاستعمال الاعتباطي بازدواجية المصطلحات كما في هذا الباب (وعي/لاوعي- شعور/لاشعور). وفهل يرجِّح التدقيق في لفظة "وعي" إحالتها منطقيا إلى دوائر العقل والعقل الباطن، ويؤكد ارتباط لفظة شعور بدوائر المشاعر والانفعالات التي مصدرها القلب؟ وبما أن العلاقات الباطنية في العقل والعقل الباطن هي مزيج من الأفكارPensées ، والتمثلاتReprésentations ، والمشاعرSentiments ، والانفعالاتÉmotions ، والحدوسIntuitions ، والعواطفAffections ، والصورImages والخيالات Imaginations المتداخلة فيما بينها، فإن الاصطلاح الغربي حسم أمر هذا التكوثر اللفظي الذي من شأنه أن يشوش على التكوثر العقلي، كما تحقق في "معجم يونغ" حين ميَّز، في تناوله وظيفة التكيفFonction d'adaptation ، بين الألفاظ التالية: فكرةPensée وشعورSentiment بصفتهما وظيفتان معقولتان Fonctions rationnelles ، وبين إحساسSensation وحدسIntuition بصفتهما وظيفتان لامعقولتانFonctions irrationnelles ٣٠
ولا بد من الإشارة هنا إلى ما نلحظه في الكتابات النفسية العربية، التي إضافة إلى الاستعمال غير الدقيق للمصطلحات، تخرق قاعدة النسبة فنجد، مثلا: "ردود فعل لاشعورية" نسبة إلى الاسم: "اللاشعور" لكن النسبة إلى "اللاوعي" تتحول إلى اسم الفاعل "ردود فعل لاواعية" بدل الاسم، فالياء المحتفظ بها هل هي الأصلية في "لاوعي" أم هي الياء التي تقتضيها النسبة؟ ألا يمكن الاستفادة من ضوابط القاعدة النحوية للحسم في أيهما أنسب استعمالا: لاوعي أم لاشعور، وتحرير المصطلحات النفسية العربية من هذه الازدواجية المُرْبكة؟

ونسوق نماذج لهذا التكوثر اللفظي، في ما رصدناه عند ترجمة مصطلحات معجم كارل غوستاف يونغ، حتى نكشف وفرة المعجم العربي التي تبدو متنازعة الدلالة بين دوائر المعنى بحيث يصعب انتقاء المفردة العربية الأكثر مطابقة لدلالة المصطلح غير العربي، فلنتأمل الآتي:

- Affection : حنو- حنان- عطف- عاطفة- محبة- مودة- ود- انفعال
- Archétype : نموذج أصلي- نموذج أول- نموذج مثالي
- Dissociation : فك- فصل- انفصال- تفريق- تفكك- انفصام
- Émotion : انفعال- تأثر- عاطفة
- Hétérogène :متغاير- متنافر- متباين- غير متجانس- متناقل- خليط
- Homogène :مجانس- متجانس
- Instinct :غريزة- فطرة- سليقة- ميل
- Introversion :انطواء ذاتي- انطواء على النفس- انكفاء على الذات- انكماش
- Mythe :أسطورة- خرافة- مجاز- وهم- تخيل
- Mystique :باطني- سري- رمزي- صوفي- متصوف
- Sentiment :إحساس- شعور- عاطفة
- Sexualité :جنسية- شقية- جنسانية (في علم النفس وفي علم النفس التحليلي: تأكيد على النشاط الجنسي وبخاصة حين يكون مفرطا)
- Typologie :نموذجية- علم النماذج منظورا إليها من حيث العلاقات بين الطبائع الذهنية والعضوية تصنيفية: في علم النفس تعني علم دراسة الأصناف الذي يسهل تحليل واقع معقد ويؤدي إلى التصنيف. وفي علم الأديان: دراسة رموز الكتاب المقدس.
- Transcendant :فائق- سام- متعال- منزه- مفارق- استعلائي- فوق الوجود المادي في الفلسفة: لفظ استعمل للدلالة على سمو الله على المخلوقات ومفارقته لها.

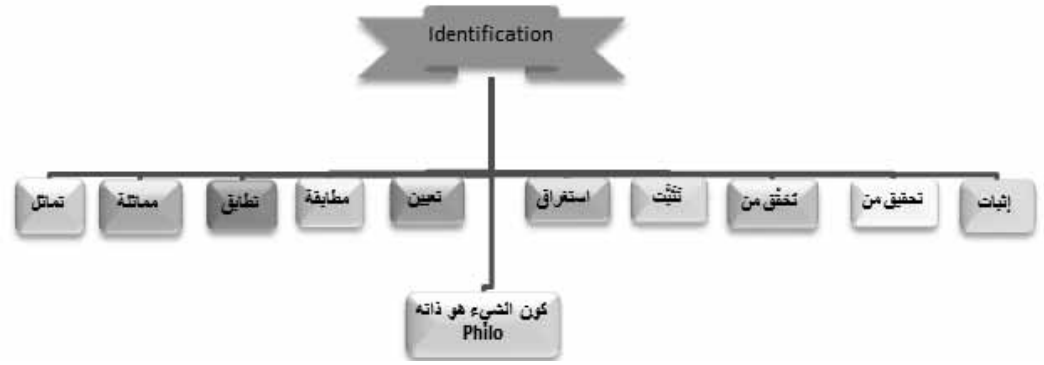

ويذكر المعجم الثنائي الفرنسي العربي، الذي اعتمدناه في هذه الترجمة، معنى Identification في مجال علم النفس كما يلي: "دمج المرء نفسه في شخص أو جماعة دمجا ينجم عنه ارتباط عاطفي. تكلف المرء للخصال التي يكبرها في شخص أو جماعة. اندماج شخصية الفرد في شخصية آخر٣١. وهذا الأمر المتعلق بتحديد معاني المصطلحات والمفاهيم، وفق الحقول المعرفية المختلفة، يتحقق أحيانا ويغيب أحيانا أخرى.

يكشف هذا المبيان الارتباك الذي يبلغ درجة الحرج اللغوي لدى المترجم وهو يتخير واحدا من هذه الألفاظ ليجعلها معادلا دقيقا لمصطلح Identification، فلفظ "مطابقة" ليس هو لفظ "مماثلة" تماما، وحتى بين "مُطابَقة" و"تَطَابق" و"مُماثَلة" و"تَماثُل" ينبئ الميزان الصرفي بوجود اختلاف في صيغة وكيفية تَحَقُّقِ نفس الفعل من جذره الثلاثي (ط- ب- ق) و (م- ث- ل)، وفي معنى آخر بين "تَحَقُّق" و"تَحْقِيق" و"تَثَبُّت" و"تَثْبِيت" - بفعل اختلاف الميزان الصرفي- لا يمكننا الحديث عن نفس المعنى مائة في المائة.

يوجد بين هذه المعادلات الدلالية ما يسمى "دقائق اللغة"Les nuances du langage أو "دَرَجَات المعنى"Les nuances du sens

التي يشبِّهها المختصون بـ "لُوَيْنات غروب الشمس" Les nuances du crépuscule . فبقدر ما تمنح "دريجات المعنى"، هذه، إمكانية اختيار اللفظ-المصطلح الأنسب لمفهوم الكلمة، ثم لسياق المعنى حتى يفي بغاية الترجمة، بقدر ما تتحول إلى خطر تعويمي يمدد دلالة المصطلح حتى يفقدها ما تقتضيها حدوده الإبستيمية من ضبط، فمن يترجم Identification بـ: مطابقة، ومن يترجمها بـ: "تحقق"، ومن يترجمها بـ "تماثل"، ومن يترجمها بغيرها من الألفاظ المشار إليها آنفا، ذلك أن «المشابهة ليست مطابقة، فتتمحي الفروق كليا، وليست مفارقة، فتتمحي وجوه الاجتماع كليا، وإنما هي علاقة جامعة لوجوه يجتمع بها الطرفان المتشابهان ولوجوه يفترقان بها»٣٢

تصبح مسألة التكوثر عند المترجم حمّالة أوجه، فاشتغاله على خطاب غيره، وفي غير لغته، ليحوله إلى نسق لغوي آخر، يضعه، على الأقل، في مستويين من الحذر:

- المستوى الأول: حين يكون في موقع المخاطَب (بفتح الطاء) الذي يبذل من أجله الناقل- المبلِّغ جهدا لغويا وعقليا من أجل التواصل والتفاعل والتجاوب عبر العلاقات الثلاثة المفترضة في الوضع التخاطبي (التخاطبية- الاستدلالية- المجازية) كما يحددها طه عبد الرحمن،
- المستوى الثاني: أن يومِّن عبر اللغة المترجَم إليها استمرار هذه العلاقات بينه وبين مخاطَب افتراضي جديد، بكل ما تسمح به من تكوثر عقلي معبرً عنه بواسطة اللغة المترجَم عنها يمكن تحويله بدقة علمية بواسطة اللغة المترجَم إليها.

لا يبدو هذا المطلب مستحيلا بالنسبة إلى اللغة العربية التي تثبت باستمرار، بواسطة معجمها، وبنياتها التركيبية والدلالية، أهليتها لاستيعاب خطابات معرفية متنوعة مصوغة بلغات أخرى يتوفر فيها التكوثر بصفته فعلا عقليا ينم عن تجدد وفاعلية، وفعلا قصديا يتغيا النفاذ بلطافة ليوسع مجاله ويثبت ترسيخه، وفعلا نفعيا لا يقف أثره الإيجابي عند حدود الفرد، بل يتجاوزه نحو الغير لينتفع به على إطار أوسع. فلا غرابة أن يصبح فعل التكوثر هذا مضاعفا بفعل الترجمة والتحويل عبر الأنساق اللغوية، ذلك أن جهد المترجِم كمتكلم ومبلِّغ بلغته عن لغة أخرى قد لا يفي بالالتزامات العلمية ما لم يكن التكوثر في اللغة المترجَم إليها متحققا بنفس مقاييس التكوثر في اللغة المترجَم منها.

فبيير بورديو حين صاغ مجموع مصطلحات-مفاهيم لنظريته السوسيولوجية، ترجم عددا من المصطلحات الألمانية، ونقل بعض المصطلحات الإغريقية كما هي حفاظا على دقة دلالتها وتوصيل معناها بما يجود به النسق التركيبي للغة الفرنسية. وحين ترجمنا ذلك المعجم، تحرينا كثيرا من الحيطة اللغوية كي لا نُخِلَّ بالدلالة أو نمسخ المعنى. إنه الجهد نفسه الذي بذله مجموع الدارسين حين ترجموا "معجم يونغ" من الألمانية إلى الفرنسية، وتوخينا الحذر ذاته، بل أكثر منه، في تحويله إلى اللغة العربية.

أية مخرجات لإشكالية ترجمة المصطلح؟

لا ننكر أن الاجتهاد في مجال الترجمة إلى العربية متواصل ومتنوع يشمل جميع حقول المعرفة بهدف مد جسورها إلى الفكر العربي تطعيما وإغناء، إلا أن هذا الجهد، في ظل تشعب المعرفة وتشذيرها بإيقاع هائل السرعة، يبدد جهود هذه الترجمة، ولا يمكنُّها من اللحاق بقاطرة الفكر العولمي في مقاصده ولغته. يتعلق الأمر، بغياب رؤية واضحة حيال مسألة الترجمة، لا كخيار لغوي أو فكري منفصل عن مناحي الحياة داخل الوطن العربي، بل كمطلب حيوي يقتضي استراتيجية تسهر على بنائها وتحقيقها المؤسسات السياسية في أعلى أطرها، يحكمها في ذلك ما تنص عليه دساتير الدول العربية في كون اللغة العربية مكونا رسميا للدولة المسؤولة عن صيانته وتطويره. فالوعي بمخاطر العولمة لتنميط الدول عبر فرض نموذج لغوي واحد هو جزء من الوعي بالمخاطر التي تتهدد كيان الأمة في خرائطها، واقتصادها، وتوازناتها المادية والفكرية والآخلاقية، وانتظاراتها المستقبلية.

لا يمكن تجاهل ما يلقي الوضع السياسي والأمني العربي الراهن من ظلال قاتمة على جهود اللغويين والمتخصصين في حقول المعرفة، فيتسع الفاصل التاريخي والعلمي الخاص بالمصطلحات والمفاهيم المستجَدة، في تحققها الموحد زمنيا ووظيفيا، مما يفرز تكوثرا لفظيا يشوش على التكوثر العقلي. إن الحاجة إلى مصطلح موحد تبدو حيوية وغير قابلة للتأجيل حتى تقيلنا عثرة هذه الوفرة المصطلحية التي تنبعث منها رائحة الصنعة تشبه، إلى حد كبير، تلك التي استبدت بالشعر العربي حين ترهلت لغته واعتراها الابتذال نهاية القرن الثالث

الهجري، حتى إن هذه الكثرة صارت موضوع خصومة ومواقف مضادة بين عدد من الأكاديميين في شرق الوطن العربي ومغربه، وصار يعاب على المترجمين المغاربة والتونسيين إدخال مصطلحات جديدة أخرى لتعدد المرجعيات التي يترجمون عنها بفعل صلتهم الوثيقة بأعلام الفكر الحديث في فرنسا، على وجه الخصوص.

نقارن، على سبيل المثال، بين منجزنا المعجمي العربي، العام والمتخصص، وبين منجزات معجم "لاروس" LAROUSSE الفرنسي في تخصصاتها وشموليتها، فيستبد بنا سؤال مؤرق حول البون الشاسع الذي بدأ يفصلنا عن اللغات الحية التي تستميت حتى لا تلتهمها اللغة الإنجليزية. ثم نستحضر تفاني الصناعات الصينية في استتباع كل ابتكار تكنولوجي بترجمة شبه فورية لبراءة الاختراع إلى عدد هائل من اللغات التي يغزو المنتج الصيني أهلها وجغرافيتها، وتفاديا للزمن المارق، بين تاريخ الاختراع وتاريخ خروج المنتج إلى السوق العالمية، اجتهدت التكنولوجيا الصينية، أيضا، حتى تصنع عقولا إلكترونية للترجمة الآلية التي تروم الاستغناء عن جهد المترجمين اللآدميين الذي قد يتباطأ ويفوِّت عليها أرباحا اقتصادية كبيرة. في ظل هذه المستجدات هل ستؤمن الترجمة الآلية ما حرصت الترجمة الإنسانية على ضمانه عبر تاريخها الطويل لتأمين ممكنات لغوية إضافية؟ وما موقع الترجمة من وإلى اللغة العربية في ظل هذا الوضع؟

اللغة، كون سلطويّ متعال ما لبث يفكر في الوجود البشري ومن أجله، فهو يدبر اختلافاته وخلافاته، ويتحكم في مجموع العلاقات الضاغطة التي تصوغ وجه العالم، وتحدد توجهاته في الاقتصاد، والبحث العلمي، والسياسة، والإعلام، والثقافة... وهو في الآن ذاته، كونُ مغايرة، وحرية، وخرق، وتمرد على هيمنة النموذج وابتذاله. وبين هذا وذاك، تمثل الترجمة صيغة وجود ممكن للتعايش الأزلي، والتقاسم العادل للمعرفة بين البشر حتى لا ترتفع الجدران العازلة بين لغة وأخرى، وبين ثقافة وأخرى، وحتى لا يكتسح طوفان اللغة العولمية الخرائط الثقافية فيدمر ما تبقى من تضاريسها ومُقَدَّراتها التي لن يتحقق ثراء العالم وتتجدد طاقاته إلا بصيانتها وضمان حقها في الاستمرار من لدن أهلها حين يمتِّعونها بأسباب التقدم، والمساهمة الفعلية في بناء الفكر. فأي أفق تفتحه الخيارات السياسية العربية للترجمة من وإلى اللغة العربية؟ وما مستقبل تدقيق وتوحيد المصطلحات الأجنبية العابرة إلى اللغة العربية تحت طائلة المثاقفة والحاجة العلمية المتجددة بلا انقطاع؟

هوامش الدراسة:

١- أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي- الإمتاع والمؤانسة- صححه وضبطه وشرح غريبه: خليل المنصور- دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان- الطبعة الأولى ١٩٩٧- ص ٨٧.

٢- محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي- دفاتر فلسفية- ٥ اللغة- دار توبقال للنشر- الدار البيضاء- الطبعة الثانية ١٩٩٨- ص ٤٦.

٣- أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي- الإمتاع والمؤانسة- مرجع مذكور- ص ٨٧.

٤- د. الحسين اخليفة- المصطلح في النقد الشعري العربي القديم: حفريات في الجذور والفُرُع- عالم الفكر العدد ١٧٠ -أكتوبر- ديسمبر ٢٠١٦- المجلس الوني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- ص ٤٥.

٥ - Stéphane Chevallier ، Christiane Chauviré- Dictionnaire Bourdieu- Ellipses Édition Marketing S. A، -٢٠١٠ Paris.

٦ - Dictionnaire Jung- Sous la direction de Aimé Angel- Ellipses Édition Marketing S. A، -٢٠٠٨ Paris.

٧- عبد الرحيم حزل- أسئلة الترجمة- سلسلة شراع- عدد ٥٥- ١٥ مايو ١٩٩٩- ص ١٨.

٨- نفسه، ص ص ١٢- ١٨.

٩- أحمد أبو سعد- المعاجم العربية في واقعها الراهن وخطة تطويرها- مجلة الفكر العربي- العدد ٧٢- السنة الرابعة عشرة- أبريل- يونيو ١٩٩٣- ص ٤٠.

١٠- عبد الرحيم حزل- أسئلة الترجمة- مرجع مذكور- ص ٣٢.

١١- د. رشيد برهون- الترجمة ورهان العولمة والمثاقفة- عالم الفكر- عدد١- المجلد ٣١- يوليو- سبتمبر- ٢٠٠٢- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- ص ١٦٥.

١٢- فلوريان كولماس- اللغة والاقتصاد- ترجمة: د. أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان- عالم المعرفة عدد ٢٦٣- نوفمبر ٢٠٠٠ م- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- ص ٣٠٠.

١٣- ابن منظور- لسان العرب- دار صادر- بيروت- طبعة ١٩٩٢- المجلد الخامس- ص ١٣٣.

١٤- طه عبد الرحمن- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي- المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- الطبعة الأولى ١٩٩٨.

١٥- نفسه، ص ١٩.

١٦- نفسه، ص ٢٣٥.

١٧- نفسه، ص ٢٣٥.

١٨- نفسه، ص ٢١.

١٩- نفسه، ص ٢٢.

٢٠- نفسه، ص ص ٢٢- ٢٣.

٢١- نفسه، ص ٢٣.

٢٢- نفسه، ص ص ٢٥- ٢٦.

٢٣- نفسه، ص ص ٢٦- ٢٧.

٢٤- عبد الله الهاشمي- مقدمة في ديدكتيك اللغات والترجمة- مطبعة وراقة سجلماسة- مكناس- الطبعة الأولى ٢٠٠٦- ص ١١١.

٢٥- نفسه، ص ١١٤.

٢٦- ابن خلدون- المقدمة- اعتناء ودراسة: أحمد الزعبي- دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع- دون تاريخ- ص ٦٠٥.

٢٧- نفسه، ص ٦٠٥.

٢٨ - YOUSSOF M. REDA- AL-KAMEL AL-KABIR Plus- Dictionnaire Français-Arabe – Librairie du Liban Publishers- ٦ ème édition ٢٠٠٧.

٢٩- د. فاخر عاقل- معجم علم النفس- دار العلم للملايين- بيروت، لبنان- الطبعة الثانية ١٩٧٧- ص ١١٨.

٣٠ - Dictionnaire Jung- Ibid- P. ٦٩.

٣١ - YOUSSOF M. REDA- AL-KAMEL AL-KABIR Plus- Ibid. P ٦٠٨.

٣٢- طه عبد الرحمن- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي- مرجع مذكور- ص ٢٣٢.